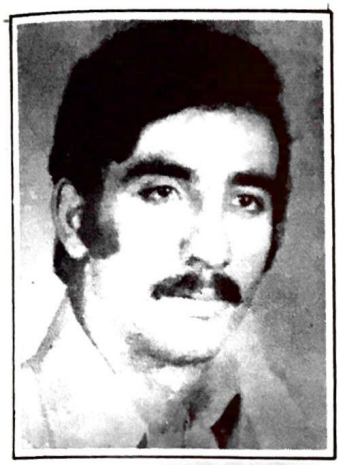

ثلاث خطوات للقتاء الشهيد حسين مصطفى

بقلم : ابو اشرف

لم تقدر همجيات الاقطاع وازلامه ان تباعد ما بين عينيه وتراب جنوبه البطل ، واشجار الزيتون الصامدة بعناد وتحد امام تيارات الردة ، واعاصير الخيانة .

وذات يوم ... رأى والدته تعصر ثديها بيديها كي ترضع طفلتها ، فينزف الثدي دما ، وتصرخ الطفلة ، ويرتفع الصراخ ، يعلو ، يلاحقه الصوت وهو في طريقه الى بيروت حاملا معه هموم امه وبعضا من الذكريات الحزينة التي لا تنسى عن بلدته الجنوبية الصغيرة « حولا » .

★ ★ ★

كان حسين مصطفى واحدا من شباب حولا الذين لم يكملوا تعليمهم الثانوي ، ... ولماذا يتعلم الناس ؟ .. « العلم بدعة شيطانية مستوردة مثله مثل افكار الماركسيين الحمر ومعتقداتهم الالحادية » ، هذا ما قاله احمد الاسعد عندما ذهب وفد من اهل البلدة يطالبه بفتح مدرسة ثانوية ، قال : « العلم هنا بدعة ، على اي حال انا ارسلت كامل بك ليتخصص في لندن ، وعندما يكمل البيك الصغير تعليمه فهو سيكفي ويفي ولا حاجة لان يتعلم اولادكم » .

وكان حسين مصطفى واحدا من ضحايا البيك ...

★ ★ ★

كانت المسافة بالنسبة اليه ، من حولا اقرب الى فلسطين منها الى بيروت . ولكنهم ربطوا رغيف الخبز بجنزير ، وعلقوا احد اطرافه برقبته والطرف الاخر بأعمدة الدخان المتصاعد من وسط بيروت التجاري ، والصناعي .

ويكون العشق ... ويبدأ الحب .

الروائح المنبعثة من أزقة النبعة وبرج حمود تشابه تماما رائحة اوراق التبغ ، وعطر الازهار ، والمزابل في بلدته ...

وجوه الاطفال بعيونها الشاردة الى البعيد في « تل الزعتر » لها نفس ملامح اطفال قريته .

ويذوب حسين مصطفى عشقا وحبا ... احتضن في نفسه اطفال تل الزعتر والنبعة ، شرب عرق العمال والعاملات في مصانع المكلس والدورة والدكوانة ... ذاب فيهم وذابوا فيه حتى صاروا هو وصار هم ...

اصبح بجسده النحيل ووجهه الشاحب حلم الصبايا وطموح الشباب . حملته النساء تعويذة من قوى الشر وايقونة للخير ...

وكان هو يرسم صورة المستقبل وجوها باسمة لاطفال الفقراء والايتام ... زهورا معلقة على ضفائرهم ... الى ان كان اللقاء ...

وتفجر حسين مصطفى بركانا ، حمما تصل اطراف السماء ، يعانق لهيبها خيوط الشمس الذهبية ...

★ ★ ★

في الاول من تموز ١٩٧٥ كان الموعد مع الشهادة . كان الوفاء لشقيقته الرضيعة التي اصبحت في ربيعها الخامس عشر ، تعرف معنى العشق والحب الذي غرسه حسين في نفسها للارض ، لفلسطين ، للبندقية ...

كان اللقاء مع ارض قريته ، مع رائحة العطر ، والزبل ، واوراق التبغ ... مع تراب الجنوب الذي ضمه برفق وحنان .

كان حسين مصطفى عاشقا فذا يعرف كيف يتعامل مع من يحب ... يعرف كيف يجمع بين حبه للبنان وحبه لفلسطين ...

كان كالسهم ، كالنصل يجيد التصويب الى الهدف ، ويعرف كيف يدخل مرماه .

يعرف كيف تختصر المسافات وكيف تصبح المسافة من حولا الى بيروت موازية للمسافة من حولا الى القدس ...